بلاغة الحجاج بالعواطف

د. أحمد قادم

مقدمة

يرتبط الحجاج بالاختلاف الفكري والتواصل بين طرفين يسعى كل واحد منهما إلى التأثير في الآخر بوساطة الحجج. وتتفاوت مراتب الناس في القدرة على إحداث التأثير المرغوب، فمنهم الخواص، ومنهم من هو دون ذلك .

ويعد الحجاج من أهم الوسائل التي تعتمد في فض النزاعات وتدبير الاختلاف الفكري. ولذلك اتصل بالمنازعة والجدل وكان بديلا عن العنف.

وقد ورد في لسان العرب ما يفيد أن الحجة هي الدليل والبرهان"(١). وهو مرادف للجدل، إذ الجدل عند ابن منظورهو: "مقابلة الحجة بالحجة"(٢). وقولنا حاججته حجاجا حتى حججته: غلبته بالحجج التي أدليت بها.

وذكر أبو الوليد الباجي في مقدمة كتابه "المنهاج في ترتيب الحجاج" أن الكتاب يخوض في الجدل(٣). فجعل الجدل مرادفا للحجاج. كما ان الحجة هي: الدليل والبرهان(٤) والعلامة(٥) والبينة(٦). وبذلك ترتبط الحجة بكل ما دوفع به الخصم عدا العنف والإكراه. ولا يكون الإقناع الحجاجي إلا بواسطة الأدلة والبراهين مهما بلغ حجم الاختلاف مع الخصوم.

والحجاج أعم من الجدل، فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل. والمجادل يحاجج لأجل الظفر بالخصم وتبكيته والاعتراض عليه بما يناقضه بالدليل والبرهان.

والحجاج من المفاهيم المتشعبة فهو يتصل بحقول معرفية متعددة كالجدل والخطابة والخطاب السياسي والقضاء والإشهار. ومجاله هو المحتمل وليس اليقينيات. ولذلك سميت بلاغة الحجاج ببلاغة الرجحان في مقابل بلاغة البرهان(٧).

ومن الباحثين من وسع دائرة الحجاج لتشمل "كل منطوق به موجه للغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها(٨). ومنهم من قال إن الحجاج نواة للخطاب، لا يستقيم إلا بها، وليس هناك خطاب خال منه بشكل صريح أو مضمرة"فلا خطاب بغير حجاج"(٩).

أما العواطف فالمقصود بها في بلاغة الحجاج: الإيتوس والباتوس. وهي من البراهين الصناعية التي عنى بها أرسطو وغيره ممن درس وسائل التأثير في المخاطب. غير أن الإشكال الذي ظل مطروحا في أذهان الباحثين وشغل تفكيرهم هو كيف يتم هذا التأثير؟ وماهي مصادره؟

فالإقناع الخطابي لا يتم عن طريق تجويد الأساليب فقط، أو عن طريق الاستدلال البرهاني الذي يفضي إلى نتائج قطعية ، بل تراعى فيه نوازع المتلقي أي مواضع الانفعال، وهو ما اصطلح عليه "بالباتوس". كما يرجع إلى الصورة التي يعطيها المتكلم عن نفسه وينال بها ثقة المخاطب، أي "الإيتوس". فالمظهر العاطفي للمتكلم لا يقل أهمية عن البراهين، وكذلك نوازع المتلقي.

- الاستدلال الحجاجي والبرهان:

البرهان لغة هو "الحجة الفاصلة البينة"١٠، أما المناطقة فيعرفونه بقولهم: هو "القياس المؤلف من اليقينيات"١١، وعند الرياضيين "ما يثبت قضية من مقدمات مسلم بها"١٢.

وينبغي التمييز بين الحجاج والبرهان، فلا يستعمل أحدهما مكان الآخر. ف "البرهان ينتمي في الأصل إلى مجال الاستدلالات الاستنباطية المنطقية والرياضية، بينما ينتمي الحجاج إلى مجال الخطاب الطبيعي"١٣.

والحديث عن البراهين في الحجاج إنما يكون باعتبارها استدلالات احتمالية يسند بعضها بعضا فلا ترقى إلى القطعيات أو اليقينيات، لأن القطعيات لا

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

يمكن الاعتراض عليها، فيما الحجاج يكون في المجالات التي يحق للفرد أن يعترض عليها.

وهذا المعطى يبين أن قوة الدليل البرهاني لا يمكن أن تقارن بالدليل الحجاجي. إذ إن دليلا برهانيا واحدا يكفي لطمس مجموعة من الأدلة الحجاجية. فالحجة في البرهان تلزم عنها النتيجة بالضرورة، بخلاف الاستدلال الحجاجي الذي يتطلب تركيم الحجج وتنويعها بحثا عن الترجيح، ومضاعفة حظوظ القبول لدى المخاطبين.

ثم إن انبناء البرهان على الضروريات والحجاج على المحتملات يجعل للمضمر منزلة خاصة في الحجاج وللتصريح منزلة خاصة في البرهان. والعناية بالمضمر تتيح للمخاطب أن يؤول المعنى حسب قدراته الذاتية استنادا إلى المقام الخطابي الذي يحيط بالقول، بينما يتضاءل موقع المقام عندما يتعلق الأمر بالضروريات المنطقية ذات الصلة بالبرهان.

الاستدلال الحجاجي والرجحان:

وللحجاج مظاهر متنوعة يتجلى فيها. كالجدل والخطابة والمغالطة وهي من أقسام المنطق التي تعتمد الرجحان. وتتنوع طرائقه بتنوع الأجناس الخِطابية. فالجدل يكون مع الغير، في المسائل الفكرية الخلافية القابلة للنقاش. والحجاج الجدلي يراد منه الغلبة بالدليل، ولهذا فهو تبكيتي، يقوم على المساءلة التي تنتهي بعجز أحد الطرفين عن الجواب حيث لا يكون مقتنعا بل مفحما. وهذه الخصيصة تجعل السؤال محوريا في الجدل. فالمساءلة " فحص لقول واستثارة لما فيه من مشكل وبحث عن مسالك النفي التي تمثل السمة الرئيسية في نمط الحجاج الجدلي"١٤. وهو ما يجعل الأخلاق والعواطف في الجدل على الهامش، إذ "لا دخل في الحجاج الجدلي عند أرسطو لأخلاق القائل "١٥ ، ولا يهتم السائل بالباتوس بالقدر الذي يسعى إلى استدراج المجيب إلى التسليم بمضمون المقدمات وتوريطه بالسؤال.

وارتبطت الخطابة بالإقناع، يقول إن: "الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"١٦. ويقصد الملكة التي يحوزها من له القدرة على الخطابة والإقناع في الأمور المفردة.

والخطابة بذلك ملكة يستطيع بها استمالة الجمهور والتأثير فيه بشكل لا يختص بموضوع محدد، "١٧، إذ ليس للخطابة موضوع محدد تبحث فيه بمعزل عن غيره. كما أن حجاجها يكون مصنوعا على مقاس نمط هذا الجمهور معين. وتعطى فيه الأسبقية للسامع. لأن الهدف حسب أرسطو ليس هو التبكيت وإنما هو "حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته، وجعله يتعصب للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الاقتضاء"١٨. ولذلك تكون عناية الخطيب بكل أشكال الحجج كالأخلاق (الإيتوس)، وحجاجية اللغة (اللوغوس)، والإنفعالات (الباتوس).

وتعد المغالطة من بلاغة الرجحان التي تقوم على التمويه والخداع. إن هذه المغالطات التي يتبناها تحول الحجاج من فعل قائم على الإقناع ، والدفاع عن الرأي بالحجة إلى مجرد خداع، وتضليل واحتيال والخروج من دائرة الحوار إلى دائرة العنف.

الإيتوس وتشييد الهوية في الخطاب:

يدل الإيتوس على أكثر من معنى وهو بذلك من المفاهيم الشائكة، وتتوزع دلالته مجموعة من المجالات، كالبلاغة والأخلاق والسياسة والموسيقى،: " فالإيتوس لا يملك من الأصل مدلولا أحادي المعنى، (.....) فهي عبارة تفسح المجال لاستثمارات متعددة: في فن الخطابة، والسياسة، والوعظ، والموسيقى(...)؛ بل إننا نجد الإيتوس عند أرسطو موضوع معالجات مختلفة في كتاب السياسة وفي كتاب الخطابة"١٩.

ومن الأسباب التي تحول دون مفهوم الإيتوس عائق الترجمة، فقد تعددت المسميات والمفهوم واحد؛ فهو يعني عند بعضهم أخلاق الخطيب (caractères) ويدل عند الآخرين على الوصف الخلقي (portrait moral)، وله عند فريق ثالث معنى الصورة (image)، وهو يستعمل بمعنى العادات الخطبية، ويستخدم بمعنى السمت، كما يعبر عنه باللهجة والنبرة"٢٠.

والواضح أن الإيتوس يحيل على ثلاثة تصورات:

- تصور يري أن الإيتوس يرتبط بالطابع الذاتي، أي مجموع السيمات الشخصية التي يتعين على الخطيب الظهور بها أمام السّامعين ،والصورة الأخلاقية التي ينحتها لنفسه داخل القول الخطبي.
- تصور ينظر إلى الإيتوس على أنه مشترك جماعي، يتصل بالعادات

والقيم الخطابية، التي تشمل أعضاء جماعة ما، ويعد هذا الإيتوس الجماعي الذي يتقاسمونه، إطارا غير مرئي ، فلا تدركه الحواس على هذا النحو من الداخل٢١.

والإيتوس بهذا الفهم، يخرج من دائرة المفرد إلى ساحة الجماعة ، فهو جماعي وتتفرد بمقتضاه كل جماعة ثقافية بأسلوب تخاطبي معين، وطريقة في الظهور والتصرف أثناء التفاعل، تتحدد بحسب نظام القيم السائدة في تلك الجماعة، وتتراوح بين توخي الحيطة أثناء الحديث أو ترك الكلفة، وبين السعي إلى الاقتراب من الآخر٢٢. وعلى الخطيب أن يأخذ بعين الاعتبار معارف ومبادئ الجماعة التي ينتمي إليها ومراعاة سائر التمثلات الجماعية والمدارك المشتركة.

- إيتوس خطابي: يرتبط بالخطاب؛ أي أنه عملية تتصل بالتلفظ، يقول حاتم عبيد: "الإيتوس هو العناصر اللغوية في الخطاب المباشر، التي انتبهت التداولية لأهميتها، فاعتبرتها من صلب الخطاب، وأوكلت إليها دورا في تعيين المراجع، وتحديد ما يعلق بأجزاء الكلام من لبس وغموض"٢٣.

والإيتوس من هذه الزاوية، مفهوم خطابي يتأسس على القول، وليس على الصورة التي ينحتها المتكلم لنفسه خارج الكلام. يقول حسن المودن معلقا على ذلك: " إذا الإيتوس بمعناه البلاغي الخالص، هو الاستعمال الأول المرتبط بالتلفظ نفسه، لا بمعرفة خارج خطابية عن المتكلم"٢٤. بل بالخطيب المتلفظ، باعتباره متكلما.

حجاجية الإيتوس:

إذا كان أفلاطون قد أقصى العواطف من دائرة الحجاج لقيامها على الظن والاعتقاد، نافيا قدرتها على الإقناعية ومعزيا ذلك إلى "سلطة اللوغوس" من خلال ما يبينه المتكلم من مقدمات تفضي إلى نتائج ملزمة، فإن أرسطو أوجد لها مكانا مريحا في مجال القول مستفيدا من آراء أستاذه حول الاستدلال البرهاني باعتباره من طريقا للحقيقة. وقد جعل أرسطو المحتملَ مشاركا للبرهان في ذلك، واستطاع أن يرجع للعواطف بريقها ويضمن لها حيزا من نسقه الإقناعي، مستدلا بالنزعة السفسطائية وما حازته من ثروات هائلة جرّاء اعتمادها سلطة العاطفة. وتمكن أرسطو من من الجمع بين نتائج الفكر السوفسطائي والأفلاطوني. يقول د. عادل عبد اللطيف: " لم يكن غريبا أن تتهيأ لبلاغة الإقناع شروط النضج داخل النسق المعرفي الأرسطي فقد استبطن المعلم الأول بشكل نقدي عميق الإسهامات السابقة عليه إسهامات السوفسطائيين وأفلاطون وحولها، بإضافاته الواسعة وأبحاثه المستفيضة في أنماط القول الإغريقي إلى قواعد جامعة ومبادئ منظمة"٢٥.

إن تحقيق الإقناع وإنتاج الاعتقاد يرتهن حسب أرسطو إلى أصول ثلاثة: (الخطيب، والخطاب، والمخاطب) يقول في هذا الصدد: "والتصديقات التي يقدمها القول على ثلاثة أضرب: الأول(يتوقف على أخلاق القائل) والثاني (على تصيير السامع في حالة نفسية ما)، والثالث (على القول نفسه حيث هو يتبث أو يبدو أنه يتبث)"٢٦. وهو نص صريح يحدد منزلة العواطف في الحجاج، وبخاصة الإيتوس الذي نحن بصدده في هذا المحو. ويركز أرسطو على كون الإيتوس جزءا من الاستراتيجيات التي يوظفها المتكلم في الإقناع. فالإيتوس هوالصورة التي تقدم أثناء الخطاب. إنه انعكاس للصورة التي يعطيها المتكلم عن نفسه من خلال خطابه. وهذا التصور يثير جملة من الأسئلة لعل أبرزها: هل الإيتوس صورة خطابية أم معطى خارجي؟ إن الأمر في جميع الحالات لا يقتصر عما يقدم به المتكلم نفسه أثناء الكلام، بل يتصل بما نعرفه عنه مسبقا. وما نعرفه عن المتكلم أهم مما يقوله ويسعى إلى الإقناع به. فالثقة التي يوحي بها المتكلم أهم بكثير من أقواله. وكل الأبعاد الخارجة عن الخطاب تفرض نفسها في العملية الحجاجية، خاصة ما يتعلق بسمعته، وأخلاقه ومكانته الاجتماعية. ويبدو لنا من خلال الإطّلاع على كتاب الخطابة أن مفهوم الإيطوس عند أرسطو حامل لدلالتين هما:

١- إيطوس سابق عن الخطاب:

فالخطيب لا بد وأن تتوافر فيه جملة من الصفات الخلقية التي تمكنه من حيازة إعجاب الجمهور، " فالقائل حجة بخلقه."٢٧. وبهذا يكون الإيطوس معطى سابقا يناله الخطيب داخل المجتمع، وهو مما يشتهر به بين الناس، فكلما كانت سمعة الخطيب حسنة، ومنزلته الاجتماعية طيبة، كان أقرب إلى كسب ثقة الجمهور ، فيجب على الخطيب إذن حسب أرسطو أن يتحلى بالفضيلة. والتي من شأنها أن ترفع مقامه عند الجمهور. وتجعله عند حسن ظنهم، ويثقون بأقواله.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٢- إيطوس مرتبط بالخطاب:

و" يتحدد الإيطوس بوصفه طريقة من طرق بناء صورة الذات انطلاقا من طريقة القول"manier de dire" ، فالخطيب ينبغي أن يستعمل في خطابه مجموعة الدلالات الأخلاقية، أي "دلالة أخلاقية يفصح عنها الحقل المعجمي الذي يستخدمه أثناء حديثه من قبيل الطيبة والأدب والعدل.٢٨، فالخطيب إبّان القول الخطابي يستخدم جملة من الكلمات والعبارات التي تخرجه في الصورة التي يسعى أن يوصلها إلى مخاطبيه؛ صورة تخدم غايته الإقناعية:" ولا يخفى أن الخطاب الذي ينجزه المتكلم يتوجه نحو قصد، ويؤم غاية محددة. وهو افتراض يؤدي بنا إلى القول إن المتكلم حين ينحت لنفسه صورة ما يكون ذلك بغاية خدمة هذا المقصد ودعم هذه الأطروحة."٢٩

يقول هشام الريفي : " فعل البناء هذا ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلم لا عن طريق ما تظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم."٣٠.

الإيطوس حسب هذا التصور هو عبارة عن عناصر لغوية وظواهر أسلوبية ينشرها الخطيب ساعة القول، تقول أموسي: " فالأسلوب الذي تكون علامات الوقف فيه نقاط تعجب يمكن أن نستخلص شخصية للقائل تتسم بالاندفاع أو الغضب. بينما الكلام الوجيز والجاف الذي لا يطيح بقاعدة التأدب قد يشير إلى المرء المنصف الذي يقول الحق بدون مواربة."٣١

غير أن الخطيب لا بد وأن يأخذ بعين الاعتبار قاعدة الموافقة، أي الموافقة بين الصورة التي ينحتها لنفسه داخل الخطاب والصورة التي في ذهن السامع " فكلما انبنت هذه الصورة على الصدق كلما كان الخطاب أنجح، وكان تأثيره في المتلقي أكبر.٣٢ فعلى القائل ألّا يقع في التناقض فيعتبر الأمر ضربا من التظّاهر والمسرحة.

فالخطيب إذن يلجأ إلى استغلال مقوماته الذاتية بغية الاستمالة والاجتذاب، سواء أكانت مقومات معهودة في الواقع، يعرفه الناس بها، أم ملامح شخصية تتحقق خلال إلقاء الخطبة. فإن تمكن من الاستثمار الجيد لكفاءاته أسعفه ذلك في الغاية الإقناعية. بل إننا نستطيع أن نقول إن هذا المظهر قد يكون حاسما في بعض الحالات، فالمظهر أصبح حجة مقنعة، يقول جاك لوكومن: " لقد أظهرت عديد من الدراسات في مجال علم النفس التجريبي أن الرجال والنساء ذوي المظهر الجسدي الجذاب يعتبرون في غالب الأحيان أذكياء وطيبين ومقتدرين، وهذا يرفع من قدراتهم الإقناعية."٣٣

الباتوس ونوازع المتلقي:

يحظى السامع في بلاغة الحجاج بأهمية كبيرة، لأنه المستهدف في العملية الإقناعية . إذ تكرس كل الأدوات لأجل الوصول إلى تغيير حال المتلقي، ودفعه إلى الانفعال بمقتضى القول، مما يجعله مميزا عن بقية العناصر. يقول هنريش بليت: " ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأول بدون منازع"٣٤.

وقد قسم أرسطو الخطابة إلى ثلاثة أقسام تبعا لمقام المتلقي٣٥: فجعل منها: القضائية والاحتفالية والاستشارية، وفي هذا يقول: "قد توجد أنواع الريطورية ثلاثة عددا، وكذلك يوجد السامعون للكلام والكلام نفسه مركب من ثلاثة: من القائل، ومن المقول فيه، ومن الذي إليه القول، والغاية إنما هي نحو هذا أعني السامع"٣٦. ومعنى هذا الكلام أن مركزية السامع هي التي تحكمت في توزيع الخطاب. وامتدت عناية أرسطو بهذا العنصر، لتشمل عواطفه فقال بصياغة الحجج المناسبة لأفكار وعواطف الجمهور المتلقي٣٧،لما لها من تأثير مباشر على الخطابة. ولهذا طالب بالوقوف على (الانفعالات) باعتبارها عاملا مساعدا على الإقناع، ويدل على ذلك قوله:: " والعواطف مصحوبة بالألم أو اللذة ، ويحمل تغيرها على تغير الناس في أحكامهم، كالغضب، والرحمة، والخوف، وكل الانفعالات من هذا النوع، وكذلك ما يضادها من انفعالات"٣٨.

ومعنى ذلك، أن هذه الأحاسيس المرتبطة بالجمهور تتحكم في تغير الناس. فكلما استطاع الخطيب أن بغير مشاعر الجمهور كلما كان قادرا على تغيير مواقفهم. هي تمثل مظهرا آنيا، وليست طبعا ثابتا قارا. فهي نتاج المثيرات التي يقدمها الخطيب، يقول محمد غنيمي هلال: " وتعريف أرسطو هذا ينطبق على الانفعالات الموقوتة، وهذه ليست في نفسها فضائل أو رذائل، لأننا لا نستحق مدحا ولا ذما بسبب هذه المشاعر العابرة، بل لما لنا من صفات ثابتة، وليست هذه الانفعالات اختيارية كالفضائل والرذائل بل تثار بعوامل خاصة"٣٩.

استطاع أرسطو كشف هذه العواطف والانفعالات في أثناء إحصائه لمواضعها ودوافعها، أحصاها في أربعة عشر وحدة " الغضب، السكون، الصداقة، الكراهية،

الخوف والأمن، الخجل والوقاحة، والإحسان، الشفقة، السخط، الحسد والاغتباط والازدراء"، مقرا في ذلك، على وجوب استفتاء ثلاث مسائل في كل حالة باطوسية، ففي حالة الغضب مثلا ينبغي معرفة الاستعدادات النفسية التي تحمل المرء على الغضب، ثم نحصي الأشخاص الذين نغضب منهم، وأخيرا الأشياء التي تثير فينا هذا الإحساس٤٠، وقد وضح ذلك ابن رشد بقوله: " ومثال ذلك إذا نظرنا في الغضب أن نقول: بأية حال يكون المرء غضوبا؟ وما الأشياء الفاعلة للغضب؟ ومن القوم الذين يغضب عليهم الطبع؟ فإن الغضب إنما يوجد ولا بدّ باجتماع هذه الثلاث،وإذا وجد بعضها ولم يوجد بعض فليس يوجد الغضب ولا بدّ".٤١

فالغضب إذن، يمثل حالة نفسية مصاحبة للمخاطب، وتستدعي من الخطيب النظر في دوافعه وأسبابه بحيث يكون على مسافة قريبة منه تمكنه من استمالة المخاطب، وهناك حالة أخرى مشابهة لها أورده أرسطو ألا وهي "الخوف"، وتتطلب كذلك معرفة ثلاثة أشياء: ما هو الخوف؟ والأمور الفاعلة له؟ والذين يخافون؟ قال: " فليكن الخوف حزنا أو اختلاطا، يحدث من تخيّل الشر الذي يتوقع أن يفسد أو يؤذي"٤٢؛ إذ كثيرا ما يخاف الإنسان من الأخطار القريبة المتوعدة كالموت، أو التي تهدد حياته وبقاءه، فتثير فيه الخوف والفزع، خاصة إذا ظهرت علامتها المباشرة بدنوها وقربها، مما يزيد في حجم هولها وجللها. وعلاوة على ذلك، فإن أرسطو ذكر عدة عواطف أخرى للمتلقي، كالحسد والقسوة والرحمة، وهذه الحركات النفسية خاضعة للتمثل، والتوجيه بحسب ارتباطها بالسن أو الطبقة الاجتماعية، والتي تؤثر على السامع، يقول هشام الريفي: "فالانفعالات مثلا تختلف كما بين أرسطو بحسب السن، كما تختلف بحسب المنزلة الاجتماعية... وقاعدة أولوية السامع في بناء الحجاج في الخطابة اعتمدها أرسطو في كتابه جميعا و صرح بها في المقالة الثالثة حيث قال: "كل شيء في هذه الصناعة مجعول للتأثير ومرتب بحسب السامع"٤٣ ، ويضيف بارت: "الباطوسات هي تأثرات ذاك الذي يستمع (وليس قط تأثرات الخطيب) مثلما يتخيلها (أرسطو) على الأقل"٤٤.

إن المتلقي هو الغاية في العملية الإقناعية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها في خطابه. فالخطابة تتوخى إقناع المستمع واستمالته،ولذلك حظي المتلقي باهتمام كبير، خاصة ما يتعلق بانفعالاته ومعرفة الحالات النفسية التي يكون عليها. وكلما استطاع الخطيب معرفة نوازع المتلقي، كلما تمكن من إحداث التأثير المرغوب.

المتلقي العام والمتلقي الخاص:

درج البلاغيون على التمييز بين صنفين من المخاطبين: وهم الخواص والعوام. فالمخاطب عند الجاحظ، إما أن يكون خاصا أو عاما، وعلى الخطيب أن يراعي التفاوت الحاصل بين الطبقات الاجتماعية أثناء التواصل، فلا تكون كل ألفاظه موجهة إلى الخواص، بل يجب أن يراوح بينهما، "فكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات"٤٥، ولذلك " لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"٤٦.

يشير الدكتور حسن المودن إلى أن نجاعة الخطاب وفاعليته، لا تقوم على الارتباط القائم بين الخطاب وطبقات المجتمع، بل إن قدرة الخطيب على التصرف في كل طبقة من الطبقات، ومدى استطاعته أن يضع لكل طبقة خطاب يناسبها ويطابقها، هي المؤدية إلى تحقيق الغاية التي من أجلها وضع الخطاب: "إن شرف الخطاب يتعلق بمطابقته لمخاطبه، ونجاعته وفعاليته في استمالة هذا المخاطب والتأثير فيه؛ والمتكلم البليغ هو الذي يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، وقمة البلاغة أن تكون للمتكلم الكفاءة اللازمة لإفهام العامة المعاني التي لا تفهمها إلا الخاصة، كأن الخطاب البليغ هو الذي يكون وسيطا بين طبقات المجتمع".٤٧ وهذه الفكرة من صميم البلاغة، وقد قيل دائما إن البلاغة هي "مراعاة الكلام لمقتضى الحال" . ومقتضى الحال شامل لكل ماله صلة بالمقام، والمخاطب جوهر ذلك، فالكلام موجه إليه. بل هو ممارسة اجتماعية بالأساس. فالخطاب عند الجاحظ: " ليس نظاما لغويا ثابتا وقارا، بل هو ممارسة اجتماعية؛ ولكي يكون الخطاب ممارسة اجتماعية فاعلة ومؤثرة، لا بد لصاحبه من أن يأخذ بعين الاعتبار أن المجتمع موزع إلى فضاءات لغوية خطابية منظمة، أي أن لكل فضاء اجتماعي شخصيته السوسيو لغوية".٤٨ وبذلك يرتهن نجاح الخطيب بمخاطبة الناس بما يفهمون، وبما يتوافق مع شخصيتهم اللغوية والثقافية. فغاية البلاغة هي الإفهام ولذلك،يتوجب على الخطيب قبل نسجه لخطابه أن يراعي الكفايات اللغوية والذهنية للمخاطَب، و: " الخطاب الإقناعي يقوم على مبادئ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

أساسية، أولها أن الإقناع يعني التوجه إلى العقل، والعمل من أجل إفهام المخاطب؛ وثانيها أن العقل ليس شيئا مطلقا، بل هو محدد بمحددات لغوية وذهنية تتفاوت من مخاطب إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى؛ وهذا التفاوت هو الذي ينبغي أن يأخذه المتكلم بعين الاعتبار".٤٩.

وحضور المخاطب بهذا الشكل يعطي أهمية كبيرة للجانب العاطفي في العملية التخاطبية، فالخطيب يصبو إلى الإقناع والتأثير في نفوس المخاطبين من خلال استهدافه لعواطفهم قبل عقولهم،. والخطاب البليغ عن الجاحظ هو ما :" حبب إليه النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب"٥٠ وهو ما كانت " الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع".٥١.

وبناء عليه، فإن نجاح الخطاب وتحقيق غاياته وأهدافه أمر رهين بمدى قدرة الخطيب على الإحاطة بالجانب النفسي واستحواذه عليه باعتماده ألفاظا ومعان تحصل بها الاستمالة والإقناع. وهذا ما أشار إليه الجاحظ بقوله: " المعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زّينت، وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي ومدخل خدع الشيطان خفي".٥٢.

أما المتلقي في الخطابة الجديدة فإنه يقف في درجة موازية لدرجة المرسل، من ثم يتلقى الخطبة من مقابل مواز، فالعلاقة بينهما أفقية" ٥٣ ، والرابط إذن بين المرسل والمخاطب "ليست معطى كما هي عليه من وجهة نظر سكونية بل هي موجه يقود الخطاب في كل مراحله"٥٤. وقد أضافت وهذا يقترب من حديث القدماء عن خصال الخطيب وأصناف المخاطبين ومقتضيات المقام، وبهذا يتجلى لنا تركيز بيرلمان على المتلقي وضرورة الإعتراف بمنظومة أفكاره، فهو عامل أساس في جعل العملية الحجاجية ناجعة و محققة للإقناع .

قسم بيرلمان وتيتيكا الحجاج إلى صنفين: "حجاج إقناعي، وآخراقتناعي؛ يتوجه الإقناعي إلى متلق خاص معتمدا على الخيال والعاطفة، أما الاقتناع فهو يرمي إلى أن يسلم به كل ذي عقل، فهو عام يعتمد بالأساس على العقل"٥٥ . وفي نفس السياق، ذكرت الدكتورة ساميةالدريدي تقسيما مشهورا لأنواع المتلقي لدى بيرلمان هو"المتلقي الخاص Particulier والمتلقي الكوني Universel "٥٦.

وأكد بيرلمان أن النوعين معا يحددان نوع الخطاب الحجاجي؛ "فالمتلقي الخاص يجعل من الخطابات تنزع إلى الإغراء والحمل على الإذعان أكثر من كونها ترمي إلى الإقتناع الفكري، في حين يجعل المتلقي الكوني الخطاب الحجاجي إقناعا فكريا خالصا "٥٧.

خاتمة :

وختاما إن العواطف من أهم العناصر الحجاجية في البلاغة، فالإيتوس والباتوس حجج صناعية يتوسل بها المحاجج، ساعيا إلى تحقيق الإقناع؛ ولا يخفى علينا ما لسلطة العواطف من قدرة على التأثير ، فإن الإنسان يذعن للقول وينقاد لعواطفه أكثر مما يخضع لعقله.

غير أن مفهوم العواطف في الحجاج لا يعرف استقرارا،إذ تتفاوت تنظيرات المهتمين بالبلاغة في تحديد مفهوم الإيتوس على الخصوص، وإن اتفقت جل الأراء على الحديث عن المظهر العاطفي للباث، أي الصورة التي ينحتها المتكلم لنفسه سواء أكانت هذه الصورة متقدمة عن الخطاب أم لاحقة عليه.

كما اتفقت كل الآراء على منزلة العواطف في الحجاج، ومرتبة المتلقي في بلاغة القول. وما الحديث عن المقال ومراتب السامعين ومناسبة الكلام لمقتضى الحال، إلا مظهرا من مظاهر الاحتفاء بالعواطف في البلاغة عموما والحجاج على وجه الخصوص. فالعواطف حجة قائمة على أخلاق الخطيب واستثارة عواطف سامعيه على النحو الذي يخدم قضيته ويحملهم بذلك على التصديق.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الهوامش

١- لسان العرب لابن منظور، مادة: حجج.

٢- نفسه: جدل

٣- الطبعة ٢، ص٧.

٤- لسان العرب، حجج.

٥- أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧، ص١٩.

٦- الجويني: الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، طبعة البابلي الحلبي ، القاهرة، ١٩٧٩، ص٤٨ (متن الكتاب).

٧- الحجاج عند أرسطو، ص١٠٥.

٨- اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، ط٢، ٢٠٠٦، ص٢١٥.

٩- اللسان والميزان، ص٢١٣.

١٠- محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس ، دار ليبيا، بنغازي، ١٩٦٦، فصل الباء.

١١- الشريف الجرجاني: التعريفات، ت: محمد صديق المنشاوي، درا الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص: ٤٠.

١٢- محمد علي النجار وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة للطباعة والنشر، استانبول، باب (الباء).

١٣ - رشيد الراضي: الحجاج والبرهان، ضمن الحجاج : مفهومه ومجالاته ، ط : ١ ، ج:١، عالم الكتب الحديث ، ٢٠١٠، ص: ١٨٥.

١٤ - نفسه، ص: ١٢٦.

١٥ - هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ص: ١٣٠.

١٦ - أرسطو: الخطابة، ت: عبد الرحمان بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩، مرجع مذكور، ص: ٩.

١٧ - أرسطو:الخطابة ،تر: بدوي، مرجع مذكور،ص:٩

١٨ - محمد أبو زهرة : الخطابة : أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص: ٥٣.

١٩ مشكلات الحجاج بالإيتوس، دومينيك مانغانيو، ترجمة حسن المودن، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف د. أحمد قادم ود. سعيد العوادي، ط١، دار الكنوز المعرفة ، عمان ٢٠١٦،ص٧٧٠.

٢٠- في تحليل الخطاب، حاتم عبيد، ط ١، ٢٠١٣ ، مكتبة الأدب المغربي، ص١١٧.

٢١- مشكلات الحجاج بالإيتوس ص ٩٦٩.

٢٢في تحليل الخطاب، حاتم عبيد، ص١١٢.

٢٣ - في تحليل الخطاب، مذكور، ص ١٠٢.

٢٤التحليل الحجاجي للخطاب، مذكور ص ٧٦٦.

٢٥- بلاغة الإقناع في المناظرة، عادل عبد اللطيف، منشورات الضفاف الرباط، دار الأمان ، ص٤٦.

٢٦- فن الخطابة، أرسطو طاليس ،ترجمة عبد الرحمان البدوي، مطبعة: دار الشؤون الثقافية العامة، دار اليمامة للنشر والإعلام، مطبعة دار وليلي مراكش، ط١ ١٩٩٧م، ص٢٩.

٢٧- الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، مذكور : ص ١٤٦.

٢٨- في تحليل الخطاب، حاتم عبيد، مذكور: ص ٩٨.

٢٩-أحمد قادم، بانت سعاد لكعب ابن زهير-مقاربة حجاجية- ، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف وتقديم: أحمد قادم وسعيد العوادي،ط١ ٢٠١٦م، دار الكنوز المعرفة، ص ٥٥٧.

٣٠- الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، مذكور ص ٩٩.

٣١ - .L 'ethos au carrefour des desciplines.OP.٤t p.١٣٦

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٣٢- أحمد قادم، بانت سعاد لكعب ابن زهير-مقاربة حجاجية- ، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، : ص ٥٥٧.

٣٣ – Emetteur.message،recepteur .Les troisfacteurs de lA persuation.٣٨.Avril.١٩٩٤.P.٢٦.

٣٤ -هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق- المغرب، (دط)،١٩٩٩ ، ص: ٢٤.

٣٥- يقول محمد العمري: " وقد اعتمد أرسطو في تصنيفه للخطابة اليونانية على حال المتلقي الذي اعتبره حكما، ثم نظر، بعد ذلك، إلى القضايا المحكوم فيها": محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا،أفريقيا الشرق- بيروت، ٢٠٠٢، ص: ٢٧.

٣٦- أرسطو طاليس، الخطابة، ص: ١٦.

٣٧- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص: ٦٨.

٣٨- أرسطو طاليس، الخطابة، ص: ٨١.

٣٩- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، ط١، ١٩٩٧ ص: ١٠١.

٤٠- م.نفسه، ص: ٨٢.

٤١- ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت،ص: ١٣٣.

٤٢ - أرسطو طاليس، الخطابة، ص: ٩٦.

٤٣- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، طبعة كلية الآداب، منوبة، تونس، ص: ١٤٧.

٤٤ – رولان بارت، قراءة في البلاغة القديمة، ص: ٦٩.

٤٥- الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص: ١٣٧.

٤٦-م.نفسه، ج١، ص: ٩٢.

٤٧- حسن المودن، الخطاب الإقناعي من البلاغة العربية القديمة من الجاحظ إلى السكاكي، ص: ٢٦٥

٤٨- حسن المودن، الخطاب الإقناعي، ص: ٢٧١.

٤٩- حسن المودن، الخطاب الإقناعي من البلاغة العربية القديمة من الجاحظ إلى السكاكي ص: ٢٧٣.

٥٠- الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص: ٨.

٥١- م.نفسه، ج١، ص: ٧.

٥٢- الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص: ٢٥٤.

٥٣ – حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة: إعداد وتقديم: الجزء الأول (الحجاج: حدود وتعريفات)، المقدمة، ص:١٠.

٥٤ – سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته و أساليبه ، عالم الكتب الحديث،إربد، الأردن، ط٢، ٢٠١١، ص:٣٢.

٥٥ –ChaimPerlemane، Lempire rhétorique: rhétorique et argumentation، ٢éme édition، augmentation dun index، paris، ٢٠٠٢، p:١٦.

٥٦ – سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته و أساليبه، (م.مذكور)، ص:٣٢.

٥٧ –Perelman (Ch) et Tyteca (Olbrechts)، traité de largumentation: la nouvelle rhétorique، presses universitaires de Lyon، ١٩٨١، p:٣٦.نقلا عن سامية الدريدي))

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المصادر والمراجع:

١- لسان العرب لابن منظور

٢- أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧.

٣- الجويني: الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، طبعة البابلي الحلبي ، القاهرة، ١٩٧٩،

٤- محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس

٥- الشريف الجرجاني: التعريفات، ت: محمد صديق المنشاوي، درا الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت،

٦- محمد علي النجار وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة للطباعة والنشر، استانبول، باب (الباء).

٧- رشيد الراضي: الحجاج والبرهان، ضمن الحجاج : مفهومه ومجالاته هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو

٨- - أرسطو: الخطابة، ت: عبد الرحمان بدوي ، مكتبة النهضة المصرية

٩- محمد أبو زهرة : الخطابة : أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب

١٠- مشكلات الحجاج بالإيتوس، دومينيك مانغانيو، ترجمة حسن المودن، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف د. أحمد قادم ود. سعيد العوادي، ط١، دار الكنوز المعرفة ، عمان ٢٠١٦.

١١- في تحليل الخطاب، حاتم عبيد، مكتبة الأدب المغربي ط ١، ٢٠١٣ .

١٢- التحليل الحجاجي للخطاب. دار الكنوز المعرفة ، عمان ٢٠١٦.

١٣- بلاغة الإقناع في المناظرة، عادل عبد اللطيف، منشورات الضفاف الرباط، دار الأمان .

١٤- فن الخطابة، أرسطو طاليس ،ترجمة عبد الرحمان البدوي، مطبعة: دار الشؤون الثقافية العامة، دار اليمامة للنشر والإعلام، مطبعة دار وليلي مراكش، ط١ ١٩٩٧م.

١٥- أحمد قادم، بانت سعاد لكعب ابن زهير-مقاربة حجاجية- ، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف وتقديم: أحمد قادم وسعيد العوادي،ط١ ٢٠١٦م، دار الكنوز المعرفة.

١٦- هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق- المغرب، (دط)،١٩٩٩.

١٧- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، ط١، ١٩٩٧.

١٨- ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت،

١٩- الجاحظ، البيان والتبيين

٢٠- حسن المودن، الخطاب الإقناعي من البلاغة العربية القديمة من الجاحظ إلى السكاكي دار كنوز المعرفة ط١ /٢٠١٤.

٢١- حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة: ط١

٢٢ – L ʻethos au .L ʻethos au carrefour des desciplines.OP.٤t

٢٣ – Emetteur.message.recepteur .Les troisfacteurs de lA persuation.٣٨.Avril.١٩٩٤.

٢٤ – ChaimPerlemane. Lempire rhétorique: rhétorique et argumentation. ٢éme édition. augmentation dun index. paris. ٢٠٠٢

٢٥ – Perelman (Ch) et Tyteca (Olbrechts). traité de largumentation: la nouvelle rhétorique. presses universitaires de Lyon. ١٩٨١.